الفصل السابع

امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته[١]

امرؤالقيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهى قبيلة يمنية[٢] كانت تنزل فى غربى حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوبى وادى الرُّمَّة الذى يمتد من شمالى المدينة إلى العراق . وقداحتلت كما مرَّ بنا مكاناً بارزاً فى نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجْراً آكل المُرار[٣] تعاقبت الإمارة فى بنيه من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة لملوك حمير اليمنيين[٤] .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة فى الحيرة والغساسنة فى الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُرْوَى أخباره منذ قيام حجر آكل المرار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك فى حروب مع الغساسنة[٥] . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفَّى فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة[٦] مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

---

(١) راجع فى كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر فى ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن) ٢١٨/٢ والأغانى ٧٧/٩ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية (انظر الأغانى طبعة دار الكتب ٧٩/١٣ والمفضليات طبعة لايل ٤٢٧/١) ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد فى أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومعديكرب ابنى الحارث .

(٣) آكل المرار لقب لحجر ، وأصله فحل الإبل يأكل نبتاً مرا يسمى المرار ، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغانى (طبع الساسى) ٢٨/١٥ وابن خلدون ٢٧٣/٢ وجواد على ٢٢٠/٣ .

(٥) الأغانى ٨٢/١٥ ومابعدها .

(٦) تاريخ الطبرى (طبعة أوربا) ٩٠٠/١ وحمزة الأصفهانى ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالى سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابناه حُجْر ومعد يكرب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية فى عامى ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد [١] .

ولا نتقدم فى القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث فى نجد . وحدث أن غضب قُباذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه [٢] ، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبناءه على القبائل ، فجعل — كما تقول بعض الروايات — حُجْراً على أسد وغطفان ، وشرحبيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس [٣] .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُباذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها فى بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معديكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أُوارة الأول [٤] ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون ، وكان شرحبيل قد سقط قبل ذلك فى معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكُلاب الأول [٥] .

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيس فقتلته قبيلة بنى أسد ، ويَرْوى صاحب الأغانى أربع روايات مختلفة فى قتله [٦] ، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبى (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) وهى تزعم أن حجراً كان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها كل عام ، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جُباته فمنعوهم وضربوهم ضرباً مبرحاً ، فسار إليهم حجر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له ، فأخذ سادتهم ، وجعل يقتلهم بالعصا

---

(١) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ٣/٢٤٥ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .
(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ١/٢٢٨ .
(٥) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٢/٢٠٨ وما بعدها والمفضليات (طبعة لايل) ١/٤٢٨ وابن الأثير ١/٢٢٧ ومعجم البلدان لياقوت ٧/٢٦٩ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/٨٢ .

ـ فسمُّوا عبيدَ العصا ـ وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم فى جنوبى وادى الرُّمَّة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدى ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أنت المليكُ عليهـمُ وهمُ العبـيدُ إلى القِيامه

فأثر ذلك فى نفس حُجْر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمروا له الانتقام ، وأصابوا منه غِرّة ، فقتلوه فى قُبَّته ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفُرج عن أبى عمرو الشيبانى (المتوفى سنة٢١٣هـ) وهى تزعم أن حجراً خاف على نفسه من بنى أسد ، فاستجار بعُوَيْر بن شِجْنة التيمى لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بنى سعد بن ثعلبة فأدركه عِلْباء بن الحارث الأسدى ، وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦) وهى تذكر أن حجراً لما استجار عُوَيْر بن شِجْنة لبنيه وأهله تحول عن بنى أسد فأقام فى عشيرته كندة مدة ، وجمع لبنى أسد منهم جمعاً عظيما ، وأقبل مُدِلاً بمن معه من الجنود ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشدّ العرب فموتوا كراماً . فساروا إلى حجر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم عِلباء بن الحارث فحمل على حجر فطعنه ، فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حجر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حُجر ونساءه وكل ما كان معه من أموال ، واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السكِّيت (المتوفى سنة ٢٤٤) وهى تزعم أن حجرًا أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بنى أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه ، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم ، فقتلوا من كان يقدم ركبه من غلمانه وسبوا جواريه . وعلم حجر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتى كان له عنده ثأر ، فقتله .

obeikandi.com

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو متهم فيما يرويه ، فهى رواية ضعيفة ، ومما يدل على فسادها قصيدة عَبيد التى ذُكر فى تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين له بمعرفة هذا اليوم الذى جاء فى القرآن الكريم وهو جاهلى وثنى؟ . ومثلها الروايتان الثانية والرابعة ، فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط ، وهو أن حجرًا يموت غيلة ، ولا نرى عشيرته كندة تثأر له أو تشتبك من أجله فى حرب مع بنى أسد . لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدى ، وهى تتفق مع ما رددده عبيد بن الأبرص فى شعره مراراً من أن قبيلته نكّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد معاصراً للحوادث وشاهد عيان لها ، ومن قوله فى ذلك يخاطب امرأ القيس[١] :

ورَكْضُك لولاه لقيتَ الذى لَقُوا فذاك الذى أنجاك مما هنالكا

وهو يشير بذلك فى وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التى قُتل فيها أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقَتْل حُجْر إذ يقول معرّضاً بامرئ القيس وساخراً من وعيده وتهديده لقومه[٢] :

ياذا المخوِّفنا بقَتْ ل أبيه إذلالاً وحَيْنا[٣]
أزعمتَ أنك قد قتلـ تَ سَرَاتنا كذباً ومَيْنا[٤]
هـلاَّ على حُجْر ابن أُمِّ قَطام تبكى لا علينا
هلا سألت جموع كنـ دةَ يوم ولَّوا أين أينا
أيام نضربُ هامهم بَبواترٍ حتى انحنينا[٥]

ويتكرر فى ديوان عبَيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة مراراً[٦] مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدى أكثر قربًا إلى الصحة والصدق وأن الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لايل) ص ٥٣ .
(٢) الديوان ص ٢٧ .
(٣) الحين : الموت .
(٤) السراة : السادة ، المين : الكذب .
(٥) السيوف البواتر : القاطعة .
(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ، ١٧ ، ٢٦ .

٢

حياته

تتردد فى كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدجًا وعديًّا ومُلَيْكة[١] ، ويُكنى بأبى وهب وأبى زيد وأبى الحارث ويلقَّب بذى القروح والملك الضِّليل[٢] ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم فى الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مر بنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين[٣] . ووهم بعض الرواة فى نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السَّمْط بن امرئ القيس بن عمرو الكندى ، وإن أمه تَمْلك بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَذْحج من رهط عمرو بن معد يكرب[٤] . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان فى الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد فى أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أى شىء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى فى شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك ماروواه[٥] هشام الكلبى إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذَّاذ القبائل : من طيئ وكلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم وخرج إلى الصيد ، فتصيَّد ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغنته قيانه . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

---

(١) انظر جواد على ٢٥٣/٣ و Olinder ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١ وما بعدها والمؤتلف والمختلف للآمدى ص ٩ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطى ٤٢٢/٢ وشرح شواهد المغنى له ص ٦ .

(٢) الأغانى ٧٨/٩ وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف) ٥٢/١ وما بعدها .

(٣) أغانى ٧٧/٩ .

(٤) أغانى ٧٧/٩ .

(٥) أغانى ٨٧/٩ وما بعدها .

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدَمّون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بنى عِجْل يقال له عامر الأعور أخو الوصّاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ علىَّ دَمُّونْ   دَمُّونُ إنا معشرٌ يمانونْ

وإننا لأهلنــا محبُّون

ثم قال : ضيّعنى صغيراً وحمّلنى دمه كبيراً ، لا صَحْوَ اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلا ، ثم قال :

خليلىَّ لا فى اليوم مَصْحًى لشاربٍ   ولا فى غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ

ثم شرب سبعاً ، فلما صَحِىَ آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدَّهن بدهن (طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جَنَّه الليل رأى برقاً ، فقال :

أَرِقتُ لبَرْقٍ بليلٍ أهــلْ   يضىء سَناه بأعلى الجبَلْ

أتانى حديثٌ فكَذَّبْتُــهُ   بأمرٍ تزعزعُ منه القُلَلْ[(١)]

بقتل بنى أسدٍ ربَّهم   ألا كلُّ شىءٍ سواه جَلَلْ[(٢)]

فأين ربيعةُ عن ربِّها   وأين تميمٌ وأين الخَوَلْ[(٣)]

ألا يحضرون لدى بابِه   كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة فى مقتل حُجْر والتى تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه فى حربه لبنى أسد وأنه فرّ حين هُزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبى . ومثله الخبر الذى ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع فى الشعر بفاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرّة ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جُلْجل ما كان فقال قصيدته : (قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس وائتنى بعينيه ،

---

(١) القلل : قم الجبال .

(٢) جلل هنا : هين .

(٣) الخول : العبيد .

فذبح جُؤْذرا[١] ، فأتاه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ! إنى لم أقتله ، قال : فأتنى به . . فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدَمّون[٢] . وواضح أن هذا الخبر يلتقى بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهو منتحل، صُنع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التى يذكر فيها صاحبته فاطمة ويذكر معها يوم دارة جُلْجل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هى وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبى وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صَبًّا بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش فى عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهر المجنّ ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد فى سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بنى أسد قَتَلة أبيه . ويظهر أن بنى أسد خافوا العاقبة، فأرسلوا إليه — فى رواية للخليل بن أحمد — وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النَّظِرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل ، فتُعْقَد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العربُ أن لا كفء لحُجْر فى دم ، وإنى لن أعتاض به جملا أو ناقة ، فأكتسب بذلك سُبّة الأبد، وقَتّ العَضُد ،وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لَعطبها سببا، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حَنَقاً وفوق الأسنة عَلَقا(دما) ورويداً ينكشف لكم دُجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فنهضوا عنه[٣] » وقد عرفوا أنه طالبهم .

---

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . شواهد المغنى للسيوطى ص ٦ .

(٢) انظر الشعر والشعراء ١/٥٤ وشرح (٣) الأغانى ٩/١٠٣ وما بعدها .

ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبنى أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي[1] ، إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرا وتغلب فسألهم النصر على بنى أسد ، وعلمت بنو أسد بما يدبِّر لهم ، فارتحلوا ولجئوا إلى بنى كنانة ، فاختلطوا بهم. وأقبل امرؤ القيس بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بنى كنانة ، وهو يحسبهم بنى أسد ، فوضع السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طَلِبَتَهُ . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقاتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ، وحَجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ، وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ، فاستنصر أزْدَ شنوءة فأبوا أن ينصروه ، فنزل بقَيْل (أمير) يدعى مَرْثد الخير الحميرى فأمدَّه بخمسمائة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالا ، فسار بهم إلى بنى أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر ابن ماء السماء وذكَر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب . وفى رواية إن المنذر ألحَّ فى طلبه ووجه الجيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من بنى يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم امرأ القيس ومن معه من بنى آكل المُرار . فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل فى أرض طيئ وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضَّباب الإيادى فأجاره ، ثم تحول عنه إلى المعلَّى بن تَيم الطائى ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بنى نَبْهان الطائية ، فبذلت له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جُوَيْن الطائى . وكان المنذر لا يزال يتبعه ، فتحول عن طيئ إلى رجل من بنى فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتيماء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبى وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغسانى بالشام ليوصّله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى انتهى إلى قيصر فى القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم إليه جيشاً كثيفاً . ولما فصَل اندسّ إلى جوستنيان رجل من بنى أسد يقال له الطمّاح فقال له : « إن امرأ القيس غَوِىّ عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

---

(١) الأغانى ٩/٩٠ وما بعدها .

كان يراسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل فى ذلك أشعاراً يشهِّرها بها فى العرب ، فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه القيصر حينئذ بحُلّة وَشْيٍ مسمومة منسوجة بالذهب ، وقال له : إنى أرسلت إليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك ، فإذا وصلتْ إليك فالبسْها باليمن والبركة ، واكتبْ إلىّ بخبرك من منزل منزل . فلما وصلت إليه لبسها واشتد سروره بها، فأسرع فيه السم وسقط جلده، فلذلك سُمّى ذا القُروح ، وقال فى ذلك :

لقد طمَح الطمَّاحُ من بُعد أرضه ... ليُلْبسنى مما يلبِّس أبؤسا[1]

فلو أنها نفسٌ تموت سَوِيَّةً ... ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتُضر بها ، فقال:

رُبْ خُطْبَةٍ مُسْحَنْفِرَهْ ... وطَعْنَةٍ مُثْعَنْجِرَه[2]

وجَمْنَةٍ مُتَحَيِّرَه ... حَلَّتْ بأَرض أَنقره[3]

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت فى سفح جبل يقال له عَسيب فسأل عنها، فأُخْبر بقصتها فقال :

أَجارتَنا إن المزار قريبُ ... وإنى مقيمٌ ما أقام عَسِيبُ

أَجارتنا إنا غريبان ها هنا ... وكلُّ غريبٍ للغريب نَسِيبُ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويتْ فى جملتها عن ابن الكلبى المتهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ، تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن جبلة الغسانى وأنه أوصله إلى جوستنيان فى القسطنطينية ، غير أنه مات فى الطريق . ومن المحقق أن قصة ثأر جوستنيان لشرفه منه قصة منتحلة ، نسجها القصاص حين

---

(١) يريد بالأبؤس مالبسه من الحلة المسمومة. سائلة .

(٢) مسحنفرة : مسهبة ، مثعنجرة : (٣) جفنة متحيرة : ممتلئة طعاماً ودسما .

وجدوه فى شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه فى القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تمادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه، وإن ابنته نظرت إليه فعشقته وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً فى حياة امرئ القيس ، بحيث طُمست معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثَمَّ ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وبما تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته فى رجوعه من عنده إنما هى تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندى الذى ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق فى مسعاه[١] . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أى إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندى وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر « نونوسوس » أن جوستنيان كلفه بالسفارة لديه[٢] . ومن ثم ظن كوزان دى برسفال أن قيسا المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس[٣] ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه فى الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت فى صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل فى شمالى الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe — جزيرة تيران الحالية فى مدخل خليج العقبة — ويطرد منها عمال المكوس من الروم، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر فى أن يعينه حاكماً على جنوبى الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف فى

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢١١ وما بعدها .

(٢) جواد على ٣/٢٦٥ وما بعدها .

(٣) انظر جواد على فى نفس الصفحة .

سفارته ، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته ، وبالغ فى إكرامه ، وعاد إلى بلاده[١] .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، أنه كان من اللخميين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر فى كتابه « المحبر » أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ — ٤٨٣ م) هو الذى نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمى ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة فى هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفى ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً فى شمالى الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصفى ولاءه للروم . ومرَّ بنا فى أخبار الحارث الكندى أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية فى الشمال ، ومر بنا أيضاً أنه كان يُغير فى أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابناه حُجر ومعد يكرب . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمى فى شمالى الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخميين فى غربى الجزيرة ، ومر بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكأنه قضى على دولتهم فى الغرب والشرق ؛ وإن كان ذلك لم يدم طويلا ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمده كسرى أنو شروان بجيوشه ، فقضى على خصمه الكندى ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها فى ملك الغساسنة .

وإنما أطلنا فى بيان ذلك لندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندى اختلطت فى ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمى[٢] ، ومن هنا كنا نظن ظنًّا أن امرأ القيس الشاعر الكندى لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

---

(١) انظر جواد على ٣/٢٦٧ وما بعدها .

(٢) وبسبب من هذا الخلط قال هيار فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغسانى والى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالى عام ٥٣٠ م ليستعين به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلا بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التى تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أى الوالى ولكنه توفى فى أنقرة بين عامى ٥٣٠ و ٥٤٠ فى أثناء رحيله لتولى منصبه.

الطويلة التى نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب فى أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنتى ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهى السنة التى توفّى فيها أو قُتل جده الحارث .

٣

ديوانه

طُبع ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجه من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشنتمرى ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عَبَدة ، ومعروف أن الشنتمرى يحتفظ فى شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعى ، وبعد أن ينتهى منها فى كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء فى قصائد امرئ القيس » وجَرَّدَ نشرته من شرح الشنتمرى .

وعُنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة فى سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمرى فى ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكرى ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه فى كتب الأدب والتاريخ. وطُبع الديوان بعد ذلك من صنعة أبى بكر البطليوسى فى مصر والهند وإيران. وأخرجه حسن السندوبى فى نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه فى الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجه مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشنتمرى فى مجموعته التى سماها « مختار الشعر الجاهلى ».

وفى سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف فى القاهرة ، واعتمد فى نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعى نقلا عن نسخة الشنتمرى التى تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتى تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمرى والأصمعى ، فهى رواية موثقة، وهى تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشنتمرى ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسى وهى رواية كوفية ، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسى على انتحالها ، وتقع فى ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحث فى هذه الروايات لاحظنا توًّا أن أعلاها فى الثقة رواية الشنتمرى عن الأصمعى ، فهى موصولة السند ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر فى تخريجها نجد كثيراً منها شك فيه الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتمادعليها، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل.

وإذن فالرواية التى ينبغى أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هى رواية الأصمعى ، وقبل مناقشتها ينبغى أن نلاحظ الشُّبَه العامة التى تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعى نفسه إذ رُوى عنه أنه كان يقول: « كل شىء فى أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا نتفاً سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »[1] وحماد فى أشعاره يقابل ابن الكلبى فى أخباره فأكثرها من منحوله . وفى الموشّح للمرزبانى : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشى يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »[2] .

ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أديل من قومه، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان فى العصر الجاهلى كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ،وقد تداخل شعرهم فى شعره . وينبغى أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعى بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأمامنا الرواة الآخرون غير الأصمعى يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال فى شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسى يفرد لذلك فصلين فى نسخته . فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع .

---

(١) مراتب النحويين ص٧٢ .

(٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤ .

نحن إذن بإزاء شاعر زُيِّفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغى أن نتلقى رواية الأصمعى بغير قليل من الحذر والاحتراس، وأول ما يلقانا فيها معلقته ، وهى بين المعلقات التى يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعى إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهى التى تبتدئ بقوله :

وقِرْبَة أَقوامٍ جعلت عصامَها على كاهل منى ذَلولٍ مُرَحَّلِ[1]

لأنها لاتشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثَمَّ نسبها بعض الرواة إلى تأبط شرًّا[2] . وتليها قصيدته (ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) وهى من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهى وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعى وأبى عبيدة، ولذلك كنا نثبتها له . أما القصيدة الثالثة (خليلىَّ مُرَّا بى على أم جُنْدب) التى يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هى وما يطوى فيها من قصة أم جندب[3] على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورويها لعلقمة بن عبدة[4] ، ولعل هذا هو الذى جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش فى أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصرى امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصرا) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفى ذلك لردها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبى وأضرابه . وشك الأصمعى نفسه فى القصيدة الخامسة (أعنِّى على برْق أراه وميضِ) وقال إنها تنسب فى بعض الروايات لأبى دُؤَاد الايادى[5] . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحىِّ بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتُ أمس دونهم) وهى فى مديح عُوَيْر بن

---

(١) عصام القربة : الحبل الذى تحمل به ، مرحل : تعود الرحلة .

(٢) انظر ديوان امرىء القيس (طبع دار المعارف) ص ٣٧٢ .

(٣) الموشح ص ٣٠ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وانظر كتاب الخيل لأبى عبيدة ص ١٣٦ .

(٥) الديوان ص ٧٢ .

شِجْنة التميمى فلم يروها الطوسى بين ما رواه عن المفضل الضبى[١] ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة فى القصيدة الثامنة (لمن طلل أبصرته فشجانى) وقال إنها محمولة عليه[٢] . والقصيدة التاسعة (قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يُحْمَلُ عليها فى مرضه، فهى تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهى لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهباً صيح فى حَجَراته) قيلت فى مديح نَبْهَانىٍّ أجاره فى أثناء طوافه فى القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة ، وهى مما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء[٣] . أما القصيدة الثانية عشرة (أماوىّ هل لى عندكم من معرّس) فقد روى أبو عمرو الشيبانى أنها لبشر بن أبى خازم الأسدى[٤] . والقصيدة الثالثة عشرة (ألما على الرّبع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التى نظمها فى مديح سعد بن الضباب الإيادى حين أجاره والتى يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبى إلى أهله بحُرّ) وهى مما أثبته له الأصمعى وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسُحام) وهى فى عتاب سُبَيع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دار ماويّة بالحائل) فقد أنكرها الطوسى وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها[٥] . ولا ريب فى أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بنى ثُعَلٍ) محمولة عليه، لأنها تصف عمرو بن المسبح الطائى ورميه للصيد، وكان من أرمى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب[٦] . والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تَنْكحى بوهة) أنكر الآمدى نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميرى[٧] . أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التى نظمها فى

---

(١) الديوان ص ٣٩٧ .
(٢) الديوان ص ٣٩٨ .
(٣) الديوان ص ٤٠٢ .
(٤) الديوان ص ٤٠٤ .
(٥) الديوان ص ٤١١ .
(٦) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن) ٢/٢٣٢ .
(٧) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ٤١٣

هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل فى يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابى لا يعرفها[١]. وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بنى عوف ابتنوا حسَباً) التى قالها فى مديح عُوَيْر بن شِجْنة فيمكن أن تكون صحيحة. وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخى باطلا) فأغلب الظن أنها منتحلة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومرَّ بنا فى رواية الهيثم بن عدى أنه كان حاضراً مقتله. وقد أنكر الأصمعى المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلا تكن إبلٌ فمعزى)[٢]. ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التى يقال إنه نظمها حين أخطأ بنى أسد وأوقع ببنى كنانة صحيحة، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التى يمدح فيها المعلّى الطائى والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون، وهما مما نظمه فى أثناء مطاردة المنذر له. أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هَطْلاء فيها وَطف) فما رواه الأصمعى عن أبى عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة[٣]، وهى لذلك من شعره الوثيق، أما الثامنة والعشرون التى تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوءم اليشكرى، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوءم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة، ولعل اتهامها هو الذى جعل الطوسى لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبى.

وإذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعى سوى القصيدتين الأوليين، وهما مطولتان، ومثلهما فى الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رُويتا عن أبى عمرو بن العلاء، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦، ١٠، ١٤، ١٥، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة. على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحت — بعد مقتل أبيه، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه، وقد رُويت طائفة منها على لسان ابن الكلبى فى أثناء حديثه الذى رواه له صاحب الأغانى عن طلب امرئ القيس لبنى أسد واستعدائه القبائلَ عليهم، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة. وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى فى ديوانه، وتاليتها، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون.

---

(١) الديوان ص ٤١٤.
(٢) الديوان ص ١٣٧.
(٣) الديوان ص ١٤٤.

٤

شعره

حاول طه حسين أن يردّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يمنى من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مر بنا أن لغة قريش هى التى سادت وذاعت منذ أوائل العصر الجاهلى على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضعٌ كثير . غير أن هذا كله لا ينتهى بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم نُبْقِ منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين : قسما نظمه قبل مقتل أبيه وقسما نظمه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية فى ديوانه (ألاعِمْ صباحاً أيها الطلل البالى) وهما جميعاً مما رواه الأصمعى والمفضل الضبى وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما فى طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصًّا بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع فى القطعة السابعة والعشرين التى رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذى الرمة . ولعل فى ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ فى ديار بنى أسد بالقرب من تيماء[١] ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه[٢] . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه .

ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستهلها بقوله :

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدخول فحَوْمَلِ[٣]

---

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التى يذكرها فى معلقته فجميعها من منازل بنى أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا فى صلابة من الأرض ، والدخول وحومل : موضعان .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيبَ والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفّسوا عنه ، وهو غارق فى ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالا سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبته فاطمة وأن يزرع الغيرة فى قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللائى أبكينه وبرّح به حبهن مثل أم الُحوَيْرث وأم الرَّباب ، ثم يفيض فى وصف يوم عُنَيْزة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفى أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمثلكِ حُبْلَى قد طرقتُ ومُـــرْضِعاً   فأَلْهَيْتها عن ذى تمائمَ مُغْيَلِ (١)

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، فى تلك الأبيات البديعة :

أفاطمَ مهلا بعضَ هذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمى فأَجْملى (٢)

وإن كنتِ قد ساءَتْك منى خليقةٌ   فسُلِّى ثيابى من ثيابكِ تَنْسُلِ (٣)

أغرَّكِ منى أن حبــك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلبَ يَفْعَلِ

وما ذرفَتْ عيناك إلا لتَقْدَحِى   بِسَهْمَيْكِ فى أعْشار قلبِ مُقَتَّلِ (٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استثارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كنى عنها ببيضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

(١) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة تعلق على الصبى ، المغيل : المرضع .

(٢) بعض هذا التدلل : أى كفى عن بعضه ، وأزمعت : عزمت ، وأجملى : من التجمل وهو ترك ما يقبح .

(٣) سلى ثيابى من ثيابك : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذرفت العين : سال دمعها ، الأعشار : القطع ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحى قلباً مكسراً .

obeikandl.com

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصبابة والغرام ، يقول :

وبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِباؤُها   تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجَلِ (١)
تجاوزتُ أَحراساً وأهوال مَعْشرٍ   علىَّ حِراصٍ لو يُشِرُّون مَقْتَلِى (٢)
إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تعرَّضَتْ   تعرُّضَ أثناء الوشاحِ المفصَّلِ (٣)
فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها   لَدى السِّترِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ (٤)
فقالتْ يمينُ الله مالك حِيلَةٌ   وما إنْ أَرى عنك العَمايةَ تَنْجَلى (٥)
خرجتُ بها تمشى تجرُّ وراءنا   على أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ (٦)
فلما أَجزْنا ساحةَ الحىِّ وانتحى   بنابَطْنُ حِقْفٍ ذِى رُكام عَقَنْقَلِ (٧)
إذا التفتتْ نحوى تضوَّعَ ريحُها   نسيمَ الصَّباجاءتْ برَيَّا القَرَنْفُلِ (٨)
إذا قلتُ هاتى نَوِّلِينى تمايلتْ   علىَّ هَضيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ (٩)

فهو يذكر خِدْرها وأحراسها ومنعتها ، وكيف وصل إليها وقد استعدَّت للنوم وما كان بينه وبينها من حوار ، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحى إلى مكان بعيد لا تراهما فيه العيون ، وكيف كانت تعفّى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى ، واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها ، مصوراً كيف تستصبى الرجال وتعبث بقلوبهم .

---

(١) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها .

(٢) يشرون : يظهرون .

(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين مالت الثريا للمغيب فأرتك جانباً منها على نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاك بناحية منه ، والمفصل : الذى جُعل بين كل خرزتين فيه لؤلؤة .

(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .

(٥) العماية : الغواية والجهالة .

(٦) المرط : إزار من خز ، المرحل : الموشى .

(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء . والحقف : المعوج من الرمل ، وركام : بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل . والواو فى وانتحى زائدة لأنها جواب لما .

(٨) تضوع : انتشر . الريا : الرائحة .

(٩) هضيم : ضامر ، الكشح : الخاصرة ، وريا المخلخل : أى أن موضع الخلخال من ساقيها ممتلىء .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تفد على ذهنه توًّا مغامرات ابن أبي ربيعة فى غزله ، لا من حيث حواره مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن فى الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آل نُعْمٍ أَنتَ غادٍ فَمُبْكِرُ غداةَ غَدٍ أَم رائحٌ فَمُهجِّرُ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه فى غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصى الصريح وقال إنه انتُحل انتحالا ، انتحله بعض القصاص على غِرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة[1] . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثر إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صنيعى الشاعرين فى وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقًّا يتحدث عن زيارته لصواحبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من لهو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً فى رقة النجوى وفى كلف صواحبه به ، بينما يمضى امرؤ القيس فى وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيًّا حتى ليتحول فى بعض جوانبه إلى صورة من التهتك الخلقى الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامى منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى[2] ، ثم كان العصر الأموى فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس فى المعلقة وحدها ، فمثلها المطولة (ألا عِمْ صباحاً أيها الطَّلَلُ البالى) فإنها تذهب نفس المذهب الذى رأيناه فى المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض فى وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا فى المعلقة ، يقول :

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٢٢١ .

(٢) ابن سلام ص ٣٥ .

سموتُ إليها بعد ما نام أهلُها ... سموَّ حَبابِ الماء حالا على حالِ [١]
فقالتْ : سَباكَ اللهُ إنكَ فاضحى ... ألستَ ترى السُّمَّار والناسَ أحوالى [٢]
فقلتُ : يمينَ الله أبرحُ قاعدًا ... ولو قطَّعوا رأسى لديكِ وأوصالى
فلما تنازعْنـــا الحديثَ وأسمحتْ ... هَصرتُ بغُصْنٍ ذى شماريخَ ميَّالِ [٣]
وصِرْنا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامُنـــا ... ورُضْت فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلال [٤]
فأَصبحتُ معشوقاً وأصبح بَعْلُها ... عليه القتامُ سَيِّئَ الظنِّ والبال [٥]
يَغِطُّ غطيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ ... ليقتلنى والمرءُ ليس بقتَّال [٦]
أيقتلنى والمَشْرَفِىُّ مُضـــاجعى ... ومسنونةٌ زرْقٌ كأَنْياب أغْوال [٧]

وكأن امرأ القيس هو الذى سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه فى تشبيبه الذى يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع فى معلقته بعد حديثه عن بَيْضة الخِدر يصف لصاحبته شقاءه بحبها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح، ولا إلى عذْل عاذل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل فى وصفه فيقول :

وليلٍ كموج البحر أرْخَى سُدولَهُ ... علىَّ بأنواع الهموم لِيَبْتَلِى [٨]
فقلت له لمـــا تمطَّى بصُلْبهِ ... وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلْكَلِ [٩]

---

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانى فكنت مثل حباب الماء يعلو بعضه بعضا فى رفق ومهل .

(٢) سباك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت وسهلت . وهصرت : جذبت : وأراد بالغصن قامتها وبالشماريخ شعرها شبهه بشماريخ النخل لكثرته وغزارته .

(٤) رضت : أذللت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساءه ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه مغبر كاسف الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل فى خناقه ، فيسمع له غطيط ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرفى : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهره . وفى رواية بجوزه والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

obeikandl.com

ألا أيُّها الليل الطويلُ ألا انْجَلِى ... بِصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَلِ (١)

فيالك من ليلٍ كأن نجومه ... بكل مُغارِ الفتْل شُدَّتْ بيَذْبُلِ (٢)

كأَنّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فى مَصَامِها ... بأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلِ (٣)

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنتهى ، ويحس كأنه طال وأسرف فى الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّت بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهى لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُمِّرتْ فى مكانها ، فهى لا تجرى ولا تسير ، وقد ردّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى صاحبته فروسيته وشجاعته ومهارته فى ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وقد أغْتَدِى والطيرُ فى وُكُناتها ... بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوابدِ هَيْكَلِ (٤)

مِكرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معاً ... كجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ (٥)

كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حال مَتْنِهِ ... كما زَلَّتِ الصَّفْوَاءُ بالمتنَزِّلِ (٦)

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى ... أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (٧)

---

(١) انجلى : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم فى الليل وفى الصبح .

(٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .

(٣) المصام : مكانها الذى لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الحبل . والجندل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .

(٤) الوكنات : المواضع التى تأوى إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكل : ضخم .

(٥) الجلمود : الصخرة الصلبة ، حطه : أسقطه .

(٦) الكميت : الفرس الأحمر فى سواد . يزل : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المتنزل : النازل عليها .

(٧) مسح : عداء يصب الجرى صبا ، السابحات : الخيل المسرعة . الونى : الضعف والفتور . الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهى لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

obeikandi.com

على العَقْبِ جَيَّاشٍ كأنَّ اهتزامَهُ   إذَا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ[١]
يُطِيرُ الغُلامَ الخِفَّ عن صهواتِهِ   ويُلْوِى بأَثْوابِ العنيفِ المُثَقَّلِ[٢]
دَرِيرٍ كخُذْروفِ الوليد أَمرَّه   تقلُّبُ كَفَّيْهِ بخيطٍ مُوَصَّلِ[٣]
له أيطلا ظَبْيٍ وساقا نعــامةٍ   وإرْخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[٤]
كأَنَّ على الكِتْفَيْنِ منه إذا انْتَحَى   مَدَاكَ عَروسٍ أو صَرَايَةَ حَنْظَلِ[٥]

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ فى الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر فى آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبْده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصبُّ الجرى صبًّا ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نقعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه فى سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التى يلعب بها الصبيان ، إذ يَصلونها بخيط ويسرعون فى إمرارها إسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبى نافر ، فله خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى فى الأرض كأنه الذئب الفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خُيِّل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مَداك عروس أو صَراية حنظل . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عنَّ لهم فى الصحراء مصوراً كيف قيّده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

---

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامه : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللبد من ظهره ، ويلوى بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثقل : الذى لا يحسن الركوب .

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاؤه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التتفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مداك العروس : حجر تسحق عليه طيبها فيبرق، شبه به الفرس فى بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقة .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهاة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء فى شمالى الحجاز ، يقول :

أحارِ ترَى بَرْقاً كأَنَّ وميضَه ... كَلَمْعِ اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّل (١)

يضِيءُ سَناهُ أو مصابيحُ راهبٍ ... أَهانَ السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّل (٢)

قعدتُ له وصحبتى بين حامِرٍ ... وبين إكام بُعْدَ ما مُتَأَمَّل (٣)

وأَضحى يَسُحُّ الماءَ عن كل فِيقةٍ ... يكبُّ على الأَذقان دَوْحَ الكَنَهْبَل (٤)

وتَيْماءَ لم يترك بها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... ولا أُطُماً إلا مَشِيدا بجَنْدَل (٥)

كأَن طَمِيَّةَ المُجَيْمِرِ غُدْوَةً ... من السَّيْلِ والغُثَّاء فَلْكَةُ مِغْزَلِ (٦)

كأَن أَباناً فى أَفانين وَدْقِهِ ... كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مُزَمَّل (٧)

وأَلْقى بصحراء الغَبيط بَعاعَهُ ... نُزُولَ اليمانى ذى العِياب المخوَّل (٨)

كأَن سِباعا فيه غَرْقَى غُدَيَّةً ... بأَرْجائه القصوى أَنابيشُ عُنْصل (٩)

---

(١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ، وميض البرق : لمعانه . الحبى من السحاب : المتراكم ، وكذلك المكلل ، وقيل الحبى : الدانى من الأرض .

(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ، الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ، ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .

(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .

(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ، الكنهبل : ماعظم من شجر العضاه ، والدوح : جمع دوحة وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان .

(٥) الأطم : البيت .

(٦) طمية : جبل ، المجيمر : أرض لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فتات الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق رأسه .

(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب . الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ، ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر بثيابه ملتف بها .

(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ، العياب : الحقائب ، المخول : كثير المتاع والغلمان الذين يصحبونه .

(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش العنصل : جذور البصل البرى .

عَلَى قَطَنٍ بالشَّيْمِ أَيمنُ صَوْبِهِ ... وَأَيْسَرُهُ على السِّتار فَيَذْبُلِ[1]

أَلَقَى بِبُسْيانٍ مع الليل بَرْكَهُ ... فَأَنزل منه العُصْمَ من كل منزلِ[2]

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه فى سحاب متراكم ، وشبَّه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحًّا ، حتى لتقتلع سيوله كل ما فى طريقها من أشجار العِضاه العظيمة . وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً، إلا ما شيّد بالصخر، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعده وأصوله . وهذا طمية جبل المجيمر التفت به السيول وما تحمل من غثاء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغثاء يشبه شيخاً ملتفًّا فى كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثِقْله فنشر به من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع فغرقت فى لججها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البرى . وقد تراكم السحاب وملأ أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بنى أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلى بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التى كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة فى الغيث والسيل تلتقى فى كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهى ذات الرقم ٢٧ فى ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهى تمضى على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطْلَاءُ فيها وَطَفٌ ... طَبَقُ الأَرض تَحَرَّى وتَدُرُّ[3]

---

(١) قطن : اسم جبل فى ديار بنى أسد ، الشيم : النظر إلى البرق والمطر . الستار ويذبل: جبلان .

(٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتعمها لكثرة مطرها . تحرى : تعمد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درّها .

obeikandi.com

تخرجُ الوَدَّ إذا ما أَشْجَذَتْ   وتُواريه إذا مـا تَشْتَكِرْ[(١)]

وتَرَى الضَّبَّ خفيفاً ماهرا   ثانيـا بُرْثُنَهُ ما يَنْعَفِـرْ[(٢)]

وترى الشَّجْرَاء فى رَيِّقِهِ   كرءوسٍ قُطِّعَتْ فيها الخُمُرْ[(٣)]

سـاعةً ثم انتحاها وابِلٌ   ساقِطُ الأكناف واهٍ مُنْهَمِرْ[(٤)]

راحَ تَمْريه الصَّبا ثم انْتَحَى   فيه شُؤْبوبُ جنوبٍ مُنْفَجِرْ[(٥)]

ثَجَّ حتى ضـاق عن آذِيِّهِ   عَرْضُ خَيْمٍ فجُفافٍ فَيُسُرْ[(٦)]

قـد غدا يحملنى فى أَنْفِهِ   لاحقُ الإطْلَيْنِ محبوكٌ مُمَرّ[(٧)]

وهو يصور فى هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه، وحيناً يُقلع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتوارى عن الأنظار . وتُتْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس معممة قطعت فى ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء، فقد ألقت السحب بوبْلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبّت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خَيْم

---

(١) الود : الوتد ، أشجذت : أقلعت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها . وقيل الود اسم جبل .

(٢) خفيفاً ماهراً : يريد مسرعاً فى عدوه . وبرثن الضب : كالإصبع للإنسان . وماينعفر : لايصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لخفة عدوه .

(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراءى كأنها رءوس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم .

(٤) انتحاها: قصدها . وابل : مطر غزير ، ساقط الأكناف : دان من نواحى الأرض . واه: متخرق ، منهمر : منسكب .

(٥) راح : عاد بالمطر فى آخر النهار . تمريه : تحركه وتديره . الشؤبوب : دفعة المطر ، والجنوب: ريح . منفجر : سائل .

(٦) ثج : سال . الآذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .

(٧) يحملنى فى أنفه : يريد فى أنف المطر أى أوله . لاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك: موثق الخلق ومثله ممر ، وأصله من الحبل الممر، وهو المحكم الفتل .

obeikandl.com

وجُفاف ويُسر .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التى كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهى التشبيب ، والغزل القصصى الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هى الموضوعات التى تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) عند التشبيب والقصص المادى، ووصف الوحش والفرس،وهو فى أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع ولهو .

وكُتب لامرئ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذى يعد لاقتناص اللذات فى اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملّى مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عاثرة فى الأخذ بثأر أبيه ورَجْع سلطان كندة على بنى أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال فى مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) :

كأنّىَ لم أركبْ جَوادا للذّةٍ ولم أتبطّن كاعبا ذاتَ خَلْخال

ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقل لخيلىَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفالِ[1]

ولعله نظم هذه القصيدة فى إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا ننتظر منه فى هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجْر يُقْتل وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ،ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى فى سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقى فى أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصْلَتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعيًّا أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعى عن أبى عمرو بن العلاء، تصور جزنه على آبائه

---

(١) أسبأ : أشترى . الزق : دن الخمر .
الروى : المملوء ، الإجفال : الانهزام فى سرعة.

وما تجمَّع عليه من البلاء، وهى ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعين لأَمْرِ غَيْبٍ ... ونُسْحَرُ بالطَّعام وبالشرابِ[1]
عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودُودٌ ... وأَجْرَأ من مُجَلَّحَة الذئاب[2]
وكلُّ مكارم الأَخلاق صارتْ ... إليه هِمَّتى وبه اكتسابى
فبعضَ اللومِ عاذلتى فإنى ... ستكفينى التجاربُ وانتسابى
إلى عِرق الثَّرَى وَشَجَتْ عروقى ... وهذا الموتُ يسلبنى شبابى[3]
ونفسِى سوف يَسْلبها وجِرْمى ... فيُلْحقنى وشيكا بالتُّرابِ
أَلم أُنْضِ المَطِىَّ بكل خَرْقٍ ... أمقِّ الطول لمَّاع السَّراب[4]
وأركب فى اللُّهام المَجْر حتى ... أنال مآكلَ القُحَمِ الرِّغاب[5]
وقد طوَّفْتُ فى الآفاق حتى ... رَضِيتُ من الغنيمة بالإيابِ
أَبعدَ الحارثِ الملكِ بن عمرو ... وبعد الخير حُجْرٍ ذى القِباب[6]
أُرَجِّى من صروف الدَّهر لِيناً ... ولم تَغْفُلْ عن الصُّمِّ الهِضاب[7]
وأَعلمُ أننى عمَّا قليـلٍ ... سأُنْشَبُ فى شَبَا ظُفُرٍ وناب[8]
كما لاقى أبى حُجْرٌ وجَدِّى ... ولا أَنْسى قتيلا بالكُلاب[9]

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

---

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : نتلهى ونخدع .

(٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .

(٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .

(٤) أنض : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المآكل هنا : الغنائم ، القحم : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة . الرغاب : الواسعة .

(٦) القباب : الخيام الكبيرة .

(٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .

(٨) شبا كل شىء : حده . أنشب : أعلق .

(٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

obeikandi.com

يتعللون عنه بالطعام والشراب ، وهو فى انتظارهم ، وهم جادون فى المسير إليه . ويَصْغر الناس وتصغر أطماعهم فى عينه ، ويراهم ضعافاً كالعصافير والذباب والدود ، ومع ذلك يسقطون على أطماعهم كالذئاب الضارية . ويطلب إلى عاذلته أن تكف عن لومه لتركه اللهو ، فإن التجارب غيرت شخصيته خلال ما مر به من أهوال الحياة . وهو ينتسب ، فلا يجد أمامه إلا موتى ، وهو يترقب نفس الأجل المحتوم ، وكأنه شخص آخر سوى هذا الشخص الذى كان يركب الخيل ويُنْضيها فى الفلاة الواسعة ، والذى كثيراً ما انتظم فى جيوش أبيه الكثيفة ، يغنم المغانم الكبيرة . وها هو اليوم يطوف فى الآفاق وراء مجده المضيَّع فلا يظفر إلا بالخيبة واليأس القاتل . وماذا يرجو بعد هذه الصخور الصلبة من آبائه وقد واراها التراب . إنه ينتظره نفس المصير ، فالموت يفتح فاه ، وأظفاره وأنيابه توشك أن تفترسه افتراساً كما افترست جده الحارث وأباه حجراً وعمه شرحبيل يوم الكُلاب .

والمقطوعة رائعة لأنها تصور لنا إحساسه بعبث الكفاح ضد المنذر وكيف كان هذا الإحساس يتعمقه فى تلك الفترة من حياته . وليس له بعد ذلك أشعار تستحق الوقوف عندها سوى بعض مقطوعات قصيرة تتداخل فيها رواية الأصمعى مع رواية هشام بن الكلبى ، وفيها يمدح ويهجو بعض من كانوا يكرمون جواره أو يسيئون هذا الجوار فلا يمدون يد العون إليه ، وهى شظايا صغيرة لا توضح منهجاً فى مديح ولا هجاء .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا ما يدل على قيمة امرئ القيس ، فهو الذى نَهج للشعراء الجاهليين من بعده الحديثَ فى بكاء الديار والغزل القصصى ووصف الليل والخيل والصيد والمطر والسيول والشكوى من الدهر ، ولعله سُبق بأشعار فى هذه الموضوعات ، ولكنه هو الذى أعطاها النسق النهائى ، مظهراً فى ذلك ضروباً من المهارة الفنية ، جعلت السابقين جميعاً يجمعون على تقديمه ، سواء العرب فى أحاديثهم عنه أو النقاد فى نقدهم للشعر الجاهلى ، يقول ابن سلام : « سبق امرؤ القيس إلى أشياء ابتدعها ، استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء ، منها : استيقاف صحبه والبكاء فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ ، وشبَّه النساء بالظباء والبيض وشبَّه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيَّد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه ، وفصَّل بين النسيب وبين

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً »[١] .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصْف النساء والخيل، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لايشوبها عسر ولا صعوبة، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشىء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعر يلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أعنة اللغة فى يده ، وقليل جدًّا ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارِ ترى بَرْقًا كأن وميضَه كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مُكلَّل
يضىء سَناه أو مصابيحُ راهبٍ أهان السَّليط فى الذُّبال المفتَّل

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه فى حبى مكلل وسحاب متراكم وأنه يضىء سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثلُ هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقًّا ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيهاته جيدة ، وهى تتراكم فى المعلقة وفى قصيدته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى) تراكماً يجعله حقًّا صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيهات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلا فى طبقاته[٢] ، استمده فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجعْ إلى تشبيهاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيْضَة فى بياضها ورقتها ، كما يشبهها بالدُّرَّة والبقرة الوحشية، أما ترائبها فكالمرآة وأما شعرها الغزير فكعِذْق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليِّن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردىّ فى بياضه ،

---

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/٥٧ .
(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .

وأما أصابعها فكمساويك شجر الإسْحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة فى المعلقة . وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخُذْروف الوليد ومَداك العروس وصَراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عَل ، كما يشبهه بالظبي فى خاصرتيه والنعامة فى ساقيه والذئب فى عَدْوه والثعلب فى تقريبه وقفزه . ونحس دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كأَنَّ دماءَ الهاديات بنَحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بشيبٍ مرجَّلِ[1]

فدم الوحش الذى صاده امرؤ القيس يلطّخ صدر الفرس فيتراءى كأنه عصارة حنّاء صُبغ بها شيب ، إذ لايكاد يفترق عن الخضاب فى شىء . ويخرج من ذلك إلى وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ، وهو لذلك يوشّى به كل شىء يعرض له فى المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو يصف الليل ، وقد أبدع فى وصفه لقطعه وأجزائه ، فهى ماتنى تتدافع وتتلاحق غير منتهية ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فعنَّ لنا سِرْبٌ كأَن نِعَاجَه عَذارَى دُوَارٍ فى المُلاءِ المذيَّلِ[2]

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التى ينسجونها .

وننتقل معه إلى مطولته (ألاعم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته للمرأة التى لقيتنا فى معلقته ، فهى كالظبية وبيضة النعامة ، بل هى كالتمثال الجميل يقول :

ويارُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأَنها خطُّ تمثالِ

ويشبه وجهها فى إشراقه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحِقْف الرمل أو ما استدار منه ، ويشبهها بالغصن فى اعتدال قوامها وتثنيها ، أما شعرها فكشماريخ النخل فى تداخله وغزارته . ويعرض لليل ونجومه فيشبهها بمصابيح رهبان ، ويحدثنا

---

(١) الهاديات : المتقدمات من بقر الوحش . مرجل : ممرج .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به فى الجاهلية . المذيل : الطويل السابغ .

عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَنْ يغازلها ولا تهديده ، فيقول :

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجعى ومسنونةٌ زُرْقٌ كأنْياب أغْوالِ

وهى صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخييل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا فى ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذَعر به قطيعَ بقر ، يجرى البياض والسواد فى سيقانه ، حتى لكأنها وشى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعُقاب تنقضّ انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلوبه ، فمنها الطرى الغضّ ، ومنها الجاف المتقبض ، ويُعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْباً ويابِساً لدى وَكْرها العُنَّابُ والحشَفُ البالى

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالى أو التمر الردىء الجاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة . ويُرْوَى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جَمْعه فى هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كأَن مُثارَ النَّقْعِ فوق رءوسنا وأسيافَنا ليلٌ تهاوَى كواكبه(١)

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة(٢) .

ولعلنا لا نُبعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذى ألهم الشاعر العربى على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذى وجهه إلى الإسراف فى استخدامه ، حتى عُدّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع(٣) . وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتى بها فى قلة ، من ذلك قوله فى المعلقة يخاطب الليل :

فقلت له لما تمطَّى بصُلْبهِ وأردَفَ أعجازًا وناءَ بكَلْكَلِ

---

(١) النقع : الغبار .

(٢) الأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١٩٦ .

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة كراتشقوفسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

obeikandi.com

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذى لا يزول . ومضى فاستعار صورة القيد لفرسه ، فسماه قيد الأوابد فهى لا تفوته ، على نحو ما مر بنا فى بيته :

وقد أغْتدى والطيرُ فى وُكُناتها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكلِ

وإذا صحت رواية[1] أمال بدلا من أهان فى قوله يصف البرق :

يضىء سناهُ أو مصابيحُ راهبٍ أمال السَّليطَ فى الذُّبال المفتَّلِ

كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معانى أمال رعى ، وكأنه استعار صورة رعى الأنْعام للنبات لما يُفنيه الذبال من الزيت شيئاً فشيئاً . وإذا تركنا معلقته إلى مطولته (ألاانعم صباحاً) وجدناه يستعير للحُلىّ على نَحْر صاحبته وتوهجه صورةَ الجَمْر ، يقول :

كأَنَّ على لبَّاتها جَمْرَ مُصْطَلٍ أصاب غَضاً جَزْلا وكُفَّ بأَجْذالِ[2]

ومن الحق أن الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال مبثوثة فيها ، مثلها مثل لونى البديع المسميين بالطباق والجناس . ومن أمثلة طباقه قوله فى المعلقة يصف غدائر صاحبته :

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العُلا تضلُّ المَدارى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ[3]

وقوله يصف فرسه :

مكرٌّ مفرٌّ مقبــلٍ مدبرٍ معاً كجَلمود صَخْر حَطَّه السَّيل من علِ

ومن أمثلة الجناس قوله فى غزله :

وإن كنتِ قد ساءَتْك منى خليقةٌ فسُلِّى ثيابى من ثيابك تَنْسُلِ

وقوله :

ألا أَيها الليلُ الطويلُ ألا انْجَلِى بصُبْحٍ وما الإصباحُ فيك بأَمْثَلِ

---

(١) ابن المعتز ص ٧ .

(٢) الغضا : من أشجار نجد . الجزل : الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول الشجر . يقول إنه جمر لايزال متقداً ، لأن بجواره مصطلياً يقلبه ويتعهده ومن حوله أصول شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار .

(٣) مستشزرات : مفتولات ، المدارى : الأمشاط .

وبجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية فى حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريع على نحو ما صنع فى المعلقة فقد صرَّع فيها مراراً ، كما فى بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفى الحق أن الموسيقى تطَّرد فى المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزحافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها لَدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المتفضِّلِ

فإن التفعيلة الثانية فى حشو البيت « مفاعلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا فى المعلقة قوله :

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معـًا كجلمود صخرٍ حطَّه السَّيْلُ من عَلُ

بضم لام القافية — وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن علُ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه — أصبح فى البيت إقواء ، وهو يكثر فى الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان فى قوله :

كأَن أباناً فى أفانين وَدْقه كبيرُ أُناسٍ فى بِجادٍ مـزمَّلُ

بضم اللام فى كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح فى هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروىّ ، فأصبحت مرفوعة بينما هى فى بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه ، فقد استوى عنده فى صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلا فى استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحُلَى معنوية ولفظية مختلفة .